تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخاطبا للمشركين : { فإنكم وما تعبدون * ما أنتم عليه بفاتنين * إلا من هو صال الجحيم } أي إنما ينقاد لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذرىء للنار { لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون } فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة كما قال تبارك وتعالى : { إنكم لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك } أي إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل ثم قال تبارك وتعالى منزها للملائكة مما نسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات ا { وما منا إلا له مقام معلوم } أي له موضع مخصوص في السموات ومقامات العبادات لا يتجاوزه ولا يتعداه وقال ابن عساكر في ترجمته لمحمد بن خالد بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد عن أبيه وكان بايع يوم الفتح أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال يوما لجلسائه : [أطت السماء وحق لها أن تئط ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد] ثم قرأ صلى ا عليه وسلّم { وما منا إلا له مقام معلوم * وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون } وقال الضحاك في تفسيره { وما منا إلا له مقام معلوم } قال كان مسروق يروي عن عائشة Bها أنها قالت : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم] فذلك قوله تعالى : { وما منا إلا له مقام معلوم } .

وقال الأعمش عن أبي إسحاق عن مسروق عن ابن عباس Bه قال : إن في السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه ثم قرأ عبد ا Bه { وما منا إلا له مقام معلوم } وكذا قال سعيد بن جبير وقال قتادة كانوا يصلون الرجال والنساء جميعا حتى نزلت { وما منا إلا له مقام معلوم } فتقدم الرجال وتأخر النساء { وإنا لنحن الصافون } أي نقف صفوفا في الطاعة كما تقدم عند قوله تبارك وتعالى : { والصافات صفا } قال ابن جريج عن الوليد بن عبد ا بن أبي مغيث قال كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزل { وإنا لنحن الصافون } فصفوا وقال أبو نضرة كان عمر Bه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : أقيموا صفوفكم استووا قياما يريد ا تعالى بكم هدي الملائكة ثم يقول { وإنا لنحن الصافون } تأخر يا فلان تقدم يا فلان ثم يتقدم فيكبر رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وفي صحيح مسلم عن حذيفة Bه قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض مسجدا وتربتها طهورا] الحديث { وإنا لنحن المسبحون } أي نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه

وقال ابن عباس Bهما ومجاهد { وما منا إلا له مقام معلوم } الملائكة { وإنا لنحن الصافون } الملائكة { وإنا لنحن المسبحون } الملائكة تسبح ا D وقال قتادة { وإنا لنحن المسبحون } يعني المصلون يثبتون بمكانهم من العبادة كما قال تبارك وتعالى : { وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين } وقوله جل وعلا : { وإن كانوا ليقولون * لو أن عندنا ذكرا من الأولين * لكنا عباد ا المخلصين } أي قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر ا وما كان من أمر القرون الأولى ويأتيهم بكتاب ا كما قال جل جلاله { وأقسموا با جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا } وقال تعالى : { أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات ا وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون } ولهذا قال تعالى هاهنا : { فكفروا به فسوف يعلمون } وعيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم D وتكذيبهم رسوله صلى ا عليه وسلّم